

الصديقَتانِ

الصديقَتانِ

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ١٦٤٠٩ / ٢٠١٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٠١٠ ٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادلي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

الصَّدِيقَتَانِ

(١) اخْتِجَابُ «أُمِّ خِدَاشٍ»

كَانَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» وَ«أُمُّ خِدَاشٍ» صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَتَيْنِ. وَكَانَتْ كِلْتَاهُمَا تُحِبُّ الْأُخْرَى، وَتُخْلِصُ لَهَا، وَتَمَحَّضُهَا الْوَدَّ، وَلَا تَأَلُو جُهْدًا فِي إِرْضَائِهَا، وَلَا تَضُنُّ عَلَيْهَا بِعَزِيزٍ وَلَا غَالٍ، وَلَا تُخْفِي عَنْهَا شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِهَا. وَكَانَتَا تَأْكُلَانِ — مَعًا — مِنْ صَحْفَةٍ وَاحِدَةٍ (طَبَقٍ وَاحِدٍ)، وَتَعِيشَانِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ. وَقَدْ نَشَأَتَا وَتَرَعَرَعَتَا وَشَبَّتَا مُتَحَالِفَتَيْنِ عَلَى الْوَفَاءِ وَالْحُبِّ. أَمَّا «أُمُّ يَعْفُورَ» فَهِيَ كَلْبَةٌ صَغِيرَةٌ جِدًّا، وَهِيَ ظَرِيفَةٌ صَفْرَاءُ الْإِهَابِ (الْجُلْدِ)، أُنِيقَةُ الْجِلْبَابِ.



وَأَمَّا صَدِيقَتُهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» فَقِطَّةٌ كَبِيرَةٌ، ذَاتُ شَعْرِ حَرِيرِيٍّ، وَلَهَا ذَنْبٌ يُعْطِيهِ الشَّعْرُ الْكَثِيفُ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ احْتَجَبَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» عَنْ صَدِيقَتِهَا، وَلَمْ تَأْتِ لِتَحِيَّتِهَا، عَلَى عَادَتِهَا. وَبَحَثَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» فِي سَلَّةِ «أُمِّ خِدَاشٍ» الَّتِي أَلْفَتْ الرُّقَادَ فِيهَا، فَلَمْ تَعْنُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ. فَحَارَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»، وَلَمْ تَدْرِ سِرَّ احْتِجَابِ صَدِيقَتِهَا الْعَزِيزَةِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَلَمَ بِهَا طَائِفٌ سَوْءٍ.

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» الْوَفِيَّةُ: «إِنَّ هَذَا الْحَسَاءَ لَا يَزَالُ غَالِيًا (شَدِيدَ الْحَرَارَةِ)؛ فَلَا ضَبْرَ قَلِيلًا، حَتَّى يَبْرُدَ، لَعَلَّ صَدِيقَتِي «أُمَّ خِدَاشٍ» تَأْتِي لِتَشْرَكَنِي فِي الطَّعَامِ».

ثُمَّ جَلَسَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» عَلَى رِجْلَيْهَا الْخُلْفِيَّتَيْنِ، وَظَلَّتْ تَسْتَنْشِقُ بُخَارَ الْحَسَاءِ الْمُتَصَاعِدِ بِفِيهَا الْأَسْوَدَ، وَتَتَأَمَّلُ فِي الصَّحْفَةِ، وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِهَا: «لَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنَ كُلَّ شَيْءٍ! فَإِنَّ «أُمَّ خِدَاشٍ» أَخْبَرْتَنِي ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهَا سَتَفَاجِئُنِي — بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ — مُفَاجَأَةً مُدْهِشَةً. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي: أَيُّهُ مُفَاجَأَةٌ أَعَدَّتْهَا لِي؟»

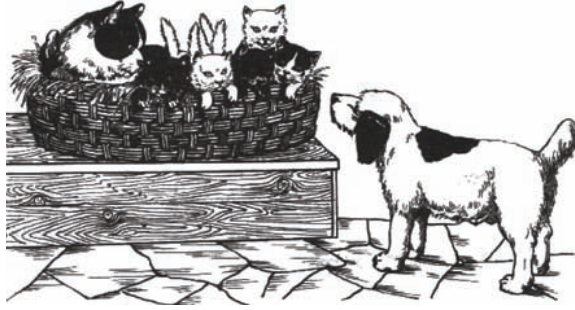
وَاشْتَدَّ بِ«أُمِّ يَعْفُورَ» الْقَلْقُ، فَسَارَتْ حَائِزَةً تَبْحَثُ عَنْ صَاحِبَتِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَشُمُّ أَرْكَانَ الْبَيْتِ وَمَخَابِئَهُ، عَلَهَا تَهْتِدِي إِلَيْهَا.

(٢) أَطْفَالُ «أُمِّ خِدَاشٍ»

وَأَنْتَهَى بِهَا الْمَطَافُ إِلَى غُرْفَةِ الْغُسْلِ الصَّغِيرَةِ، فَبَضْبَصَتْ (حَرَكَتْ ذَنْبَهَا) مَسْرُورَةً بِتَوْفِيقِهَا، وَرَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى صُنْدُوقِ فَوْقِ الرَّفِّ، ثُمَّ حَيَّتْ صَدِيقَتَهَا مُبْتَهَجَةً، قَائِلَةً: «سَعِدَ يَوْمُكَ يَا «أُمُّ خِدَاشٍ». لَقَدْ سَاوَرَنِي الْقَلْقُ عَلَيْكَ، فَمَاذَا أَخْرَكَ عَنْ تَحِيَّةِ صَدِيقَتِكَ؟ وَمَاذَا تَصْنَعِينَ فَوْقَ هَذَا الرَّفِّ الْعَالِي؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ»: «إِنِّي مُفْضِيَةٌ إِلَيْكَ بِأَمْرِ يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ وَالْعَجَبِ: لَقَدْ فُوجِئْتُ مُفَاجَأَتِ خَمْسًا، وَرَأَيْتُ غَرَائِبَ خَمْسًا!...

فَلَمْ تَفْهَمْ «أُمُّ يَعْفُورَ» شَيْئًا مِمَّا تَعْنِيهِ، وَرَفَعَتْ فَاها فِي الْهَوَاءِ وَهِيَ حَائِزَةٌ، فَسَمِعَتْ صَوْتَ طِفْلِ صَغِيرٍ يَنْبَعُثُ فَجَاءَةً مِنَ الصُّنْدُوقِ مُجْمِعًا: «مِيا ... وَا! مِيا ... وَا! أُمَاهُ!»



فَأَذْرَكْتُ «أُمَّ يَغْفُورَ» السَّرَّ فِي احْتِجَابِ «أُمِّ خِدَاشَ»، وَظَلْتُ تَقْفُزُ فِي الْغُرْفَةِ، عَلَى ثَلَاثِ أَرْجُلٍ، مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ، كَمَا تَفْعَلُ الْكِلَابُ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَيْهَا الطَّرْبُ وَالْفَرَحُ. ثُمَّ هَنَأْتُهَا بِهَذِهِ الْقِطَاطِ الْعَزِيزَاتِ. فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» مَزْهُوَّةً فَرَحَانَةً: «أَلَمْ أَقُلْ لِكَ إِنَّهَا مُفَاجَأَتْ حَمْسٌ؟ نَعَمْ. فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْلَادِ الْخَمْسَةِ هُوَ مُفَاجَأَةٌ سَارَّةٌ. فَاَنْظُرِي بِرَبِّكَ إِلَى هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعَزِيزَةِ، الَّتِي مَلَأَتْ قَلْبِي سَعَادَةً وَإِعْجَابًا!»

وَظَلْتُ «أُمَّ خِدَاشَ» تَلْحَسُ بِلِسَانِهَا جِلْدَ أَوْلَادِهَا الْقِطَاطِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ قَائِلَةً: «آه لَوْ تَعْلَمِينَ كَيْفَ فُتِنْتُ بِحُبِّ هَذِهِ الْأَطْفَالِ الصَّغِيرَةِ! إِنَّهَا زِينَةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا، وَمَصْدَرُ سَعَادَتِنَا وَمَبْعَثُ أَنْسِنَا. فَهَلُمِّي — أَيَّتُهَا الْحَبِيبَةُ — فَاَنْظُرِي أَطْفَالِي الْأَعَزَّاءَ. فَإِنِّي أَعْرِفُ مِقْدَارَ شَغْفِكَ بِالْأَطْفَالِ، وَحَدِيكَ عَلَيْهِمْ. هَلُمِّي فَاصْعِدِي إِلَيَّ — يَا «أُمَّ يَغْفُورَ» — وَتَسَلَّقِي هَذَا اللَّوْحَ الصَّغِيرَ.»

فَوَقَفْتُ «أُمَّ يَغْفُورَ» مُسْتَبِدَّةً إِلَى الْحَائِطِ، وَحَاوَلْتُ أَنْ تَتَسَلَّقَ اللَّوْحَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ — لِصِغَرِ جِسْمِهَا — وَلَمْ يَصِلْ قُوهَا إِلَى اللَّوْحِ. فَقَالَتْ لِصَاحِبَتَيْهَا: «مُحَالٌّ عَلَيَّ أَنْ أَصِلَ إِلَى هَذَا اللَّوْحِ؛ فَإِنَّ أُمِّي لَمْ تَعْلَمْنِي: كَيْفَ أَتَسَلَّقُ، كَمَا عَلَّمْتِكِ أُمُّكَ. وَلَسْتُ أَدْرِي: مَا الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْكَ هَذَا الْمَكَانَ الْمُرْتَفِعَ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحْجَى بِكَ وَأَهْدَى: أَنْ تَبْقَى فِي سَلَّتِكَ الَّتِي تَنَامِينَ فِيهَا، إِلَى جَانِبِ سَرِيرِي؟»

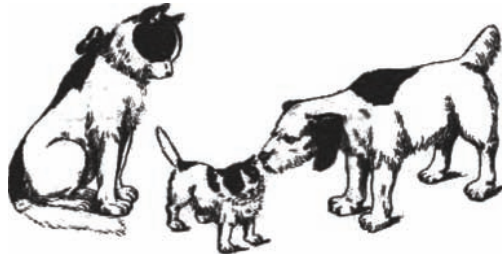
فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»، وَهِيَ تَهْزُرُ رَأْسَهَا مُتَعَجِّبَةً مِنْ غَفْلَةِ صَدِيقَتِهَا: «شَدَّ مَا تُحْطِئِينَ فِي حُكْمِكِ، يَا «أُمُّ يَغْفُورَ». عَلَى أَنَّي أَلْتَمَسُ لَكَ الْعُذْرَ، لِأَنَّكَ مَا تَزَالِينَ طِفْلَةً، غَيْرَ مُجَرَّبَةٍ. وَأُحِبُّ أَنْ أَبْصُرَكَ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ؛ فَإِنَّ الْقِطْعَةَ الذَّكِيَّةَ الْحَازِمَةَ، تَرَى مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُخْفِيَ أَبْنَاءَهَا — دَائِمًا — فِي الظَّلَامِ، حَتَّى لَا تَقَعَ عَلَيْهِمْ عَيْنُ كَائِنٍ كَانَ، فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ حَيَاتِهِمْ. عَلَى أَنَّي لَنْ أَبْحَلَ عَلَيْكَ بِرُؤْيَا وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَجْمَلُهُمْ شَكْلًا، وَأَبْنَاهُمْ مَنْظَرًا؛ لِأَنَّهُ مَرْقُشٌ بِالْوَانِ ثَلَاثَةً، وَلَيْسَ فِي الْقِطَاطِ أَجْمَلُ مِمَّنْ يَجْمَعُ هَذَا الْعَدَدَ مِنَ الْأَلْوَانِ. وَقَدْ أَسْمَيْتُهُ: أَبَا الشَّرْقِ».

وَنَهَضَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» وَوَضَعَتْ صَغِيرَهَا «أَبَا الشَّرْقِ» عَلَى عُنُقِهَا — فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ — حَتَّى لَا تُزْعِجَهُ، وَفَقَرَتْ إِلَى اللُّوحِ، وَهِيَ رَافِعَةٌ رَأْسَهَا، حَتَّى لَا يَسْقُطَ مِنْهَا صَغِيرُهَا الْحَبِيبُ.

ثُمَّ وَضَعَتْهُ عَلَى اللُّوحِ، وَهِيَ مَرْهُوَةٌ تَائِهَةٌ بِهِ أَمَامَ صَدِيقَتِهَا، وَقَالَتْ لَهَا: «كَيْفَ تَقُولِينَ؟ لَا جَرَمَ أَنَّهُ جَمِيلٌ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فَتَرَاجَعَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» خُطْوَةً، وَنَظَرَتْ إِلَى «أَبِي الشَّرْقِ» مَذْهُوشَةً تَعَجَّبُ مِنْ رَأْسِهِ الْمُسْتَدِيرِ، وَعَيْنَيْهِ الْمُقْفَلَتَيْنِ، وَجِسْمِهِ اللَّيِّنِ، وَذَنْبِهِ الرَّفِيعِ الَّذِي يَخْتَلِجُ.

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» لِصَاحِبَتِهَا، وَهِيَ تُرَبِّتُ — فِي رِفْقٍ وَحَنَانٍ — قِطْعَتَهَا الصَّغِيرَةَ الْمَغْمُضَةَ الْعَيْنَيْنِ: «أَلَسْتَ تَرَيْنَهُ بَدِيعًا، يَا أُمُّ يَغْفُورَ؟»



فَاقْتَرَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مِنْ «أَبِي الشَّرْقِ»، وَشَمَّتْهُ — وَهِيَ مُرْتَجِفَةٌ مُنْفَسِحَةُ الْأَرْجُلِ — وَقَالَتْ خَجَلَةً: «لَا جَرَمَ أَنَّ «أَبَا الشَّرْقِ» لَطِيفٌ، وَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ جَمَالًا حِينَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ!»

(٣) غَضَبُ «أُمِّ خِدَاشٍ»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» مَحْزُونَةً: «كَيْفَ يَزْدَادُ جَمَالًا؟ إِنَّهُ سَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ قَرِيبًا. أَلَا تَعْرِفِينَ أَنَّ الْقِطْطَ جَمِيعًا — بَعْدَ أَنْ تُولَدَ — تَظَلُّ عَمِيَاءَ مُدَّةِ أَيَّامٍ ثَمَانِيَةٍ أَوْ تِسْعَةٍ؟ عَلَى أَنَّي لَا أَرَى وَلَدِي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْجَمَالِ، فَهُوَ عِنْدِي أَجْمَلُ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَائِنَاتِ. أَفَاهِمَةُ أَنْتِ مَا أَقُولُ، أَيُّهَا الصَّغِيرَةُ الْغَافِلَةُ؟ فَإِذَا لَمْ تَفْهَمِي هَذَا الْكَلَامَ، وَلَمْ تُؤْمِنِي بِهِ، فَنَاصِرِي مِنْ قُورِكَ — وَلَا تُرِينِي وَجْهَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ!»

ثُمَّ أَمْسَكَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» بِمَوْلُودِهَا الْحَبِيبِ، وَقَفَرَتْ إِلَى صُنْدُوقِهَا مُغْضَبَةً مُخَنَّفَةً. وَعَجَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مِمَّا رَأَتْ عَجَبًا شَدِيدًا. وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ — فِي صَاحِبَتِهَا — إِلَّا دُمَاةَ الْخُلُقِ، وَلَيْنَ الْعَرِيكَةِ، وَلَمْ تَرَ غَضَبَهَا إِلَّا فِي هَذَا الْيَوْمِ.

وَقَدْ أَدْنَسَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَلَهُّبِ عَيْنَيْهَا، وَإِمْعَانِهَا فِي إِسَاءَتِهَا وَالسُّخْطِ عَلَيْهَا؛ وَحَزَنَهَا حُزْنُ صَدِيقَتِهَا. ثُمَّ قَالَتْ لَهَا مُتَأَلِّمَةً: «لَا عَلَيْكَ — يَا عَزِيزَتِي «أُمُّ خِدَاشٍ» — فَإِنِّي لَمْ أَتَعَمَّدُ إِغْضَابِكَ، وَلَمْ أَقْصِدْ إِلَى إِسَاءَتِكَ. وَإِنِّي مُعْتَذِرَةٌ عَمَّا فَرَطَ مِنِّي. وَسَتَرَيْنِ: كَيْفَ أَحَبُّ تِلْكَ الْقُطِيطَاتِ الْعَزِيزَاتِ؟»

وَلَكِنَّ «أُمَّ خِدَاشٍ» لَمْ تَهْدَأْ ثَائِرَتُهَا، فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ يَعْفُورَ»: «وَدِدْتُ لَوْ تَعْلَمِينَ، يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ...»

فَقَاطَعَتْهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» صَائِحَةً: «لَسْتُ صَدِيقَةً لِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَا أَحَبُّ أَنْ تَتَّخِذَنِي صَدِيقَةً بَعْدَ الْآنِ. فَقَدْ صَحَّ مَا قَالْتَهُ لِي أُمِّي: إِنَّ الْكِلَابَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُخْلَصَ فِي صَدَاقَتِهَا لِلْقِطْطِ. وَكَيْفَ تَصْفُو قُلُوبُنَا، وَحَنُّ لَمْ نُنْشَأْ تَنْشِئَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ نَدِنْ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «لَا تَنْسِيْ أَنَّنَا — عَلَى ذَلِكَ — مِنْ أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ.» فَقَالَتْ لَهَا: «لَسْتُ أَشْكُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ فَصِيلَتَنَا وَاحِدَةً، لِأَنَّنَا جَمِيعًا مِنْ آكِلِي اللَّحْمِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَصِيلَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا: مُهَذَّبَ الْخُلُقِ، وَقِسْمًا: غَلِيظَ الطَّبْعِ.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مُعَاتِبَةً: «مَا أَحْسَبُكَ تَعْنِينِي بِهَذَا التَّعْرِِيضِ.»

فَقَالَتْ لَهَا: «مَا عَنَيْتُ سِوَاكَ — يَا «أُمُّ يَعْفُورَ» — فَإِنَّ الْكِلَابَ غَيْرُ مُهَذَّبَةٍ، وَقَدْ عَرَفْتَهُمُ الْقَطَاطُ جَمِيعًا بِسُوءِ الْأَدَبِ، وَغِلَظِ الطَّبَاعِ، وَأَنَّى لَكُمْ التَّهْذِيبُ، وَدِمَائَةُ الْخُلُقِ؟ أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ وَالتَّعَالِبُ الْمَاكِرَةُ أَبْنَاءُ أَعْمَامٍ؟ أَلَيْسَتْ الذَّنَابُ الْقَاسِيَةُ الْفَتَاكَةُ — فِي الْغَابَاتِ — مِنْ بَنَاتِ أَعْمَامِكُمُ الْأَذَنَيْنِ كَذَلِكَ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «لَيْسَ مِنْ خَطِيئِي — أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ — أَنَّ تَكُونَ التَّعَالِبُ وَالذَّنَابُ مِنْ أَبْنَاءِ أَعْمَامِنَا، وَبَنَاتِ عَمَاتِنَا! عَلَى أَنَّنِي أَذْكَرُ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ — ذَاتَ يَوْمٍ — إِذْ قَرَّرْتُ أَمَامِي أَنَّ الْأَسَدَ مِنْ أَقَارِبِكَ، وَهُوَ — فِيمَا أَعْلَمُ — وَحْشٌ ضَارٍ، قَاسِي الْقَلْبِ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»: «لَسْتُ أَنْكُرُ هَذَا، فَإِنَّ السَّبْعَ هُوَ ابْنُ عَمِّي بِلَا شَكٍّ. وَإِنِّي بِذَلِكَ لَفَخُورَةٌ مَزْهُوَةٌ؛ لِأَنَّهُ نَبِيلٌ عَظِيمٌ، بَعِيدُ الْهَمَّةِ، عَزِيزُ النَّفْسِ، وَهُوَ مَلِكُ الْحَيَوَانِ، وَسَيِّدُنَا الْأَمْرِ الْمُطَاعُ. وَنَحْنُ مِنَ الْأُمَرَاءِ، لِأَنَّنَا مِنْ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ السَّامِيَةِ. فَلَا غَرَوْ إِذَا دَانَ لَنَا النَّاسُ بِالْإِحْتِرَامِ وَالْإِجْلَالِ، فَلَمْ يُطَوَّقُوا أَغْنَاقَنَا بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَطْوَاقِ، كَمَا يَفْعَلُونَ مَعَكُمْ، مَعْشَرَ الْكِلَابِ؛ لِأَنَّنَا وَلِدْنَا وَعِشْنَا أَحْرَارًا، لَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا!»



وَكَاثِمًا صَجِرَتْ الْقُطَيْطَاتُ الصَّغِيرَاتُ بِهَذَا الْحِوَارِ الطَّوِيلِ، فَانْبَعَثَ مُوَاوُهَا خَافِتًا مِنْ قَاعِ الصُّنْدُوقِ. فَمَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» إِلَى أَطْفَالِهَا، وَقَدْ اضْطَجَعَتْ عَلَى جَانِبِهَا، وَفَسَحَتْ أَرْجُلَهَا، وَجَمَّعَتْ قَلِيلًا. فَسَكَتَ صِغَارُهَا، وَمَدُّوا أَلْسِنَتَهُمْ بَاجِثِينَ عَنْ نُذِيِّ أُمَّهِمْ — يَمَنَةً وَيَسْرَةً — وَظَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمُ الْوَرْدِيَّةُ الصَّغِيرَةُ تُطْقِطُقُ بِصَوْتِ خَافِتٍ، وَظَلَّتْ أُمُّهُمْ تَلَحَّسُهُمْ،

وَهُمْ يَرْضَعُونَ، وَهِيَ حَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَتْ تَدَاعِبُ «أَبَا الشَّرْقِ»: «يَا لَكَ مِنْ شَرِّهِ! لَقَدْ ظَلَلْتُ تَطْعُمَ عَشْرَ دَقَائِقَ كَامِلَةٍ، دُونَ أَنْ تَشْبَعَ! أَلَا تَتْرُكُ تَدْيِي لِأُخُوتِكَ الْآخَرِينَ؟ إِنَّ أُخْتَكَ الْمُسْكِينَةَ «أُمَّ الشَّرْقِ» نَحِيلَةٌ مَهْرُولَةٌ الْجِسْمِ؛ وَقَدْ هَمَمَنِي ضَعْفُهَا، وَأَقْلَقَ بَالِي، فَهِيَ لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، مُنْذُ وَلَدَتْهَا إِلَى الْآنَ. وَهِيَ لَيْسَتْ بِكَمَاءٍ فِيمَا أَرَى. فَمَا سِرُّ ضَعْفِهَا وَهْزَالِهَا؟ شَدَّ مَا يَزْعُجُ الْأُمَمَاتِ مَرَضُ أَبْنَائِهِنَّ!»

(٤) حُلْمُ مُزْعِجٍ

وَنَعُودُ إِلَى «أُمِّ يَعْفُورٍ»: تِلْكَ الْكَلْبَةُ الْوَفِيَّةُ الْمُخْلِصَةُ، لِنَرَى: مَاذَا حَدَّثَ لَهَا؟ لَقَدْ رَفَدَتْ عِنْدَ بَابِ الْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ، وَظَلَّتْ تَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وَتَحَدَّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً: «إِنَّ صَدِيقَتِي «أُمَّ خِدَاشٍ» لَيْسَتْ — فِيمَا أَعْلَمُ — حَمَقَاءَ. وَلَعَلَّ سِرَّ انْزِعَاجِهَا، وَمَصْدَرُ غَضَبِهَا، أَنَّهَا لَمْ تَنْلُ حَظَّهَا مِنَ النَّوْمِ الْمُرِيحِ، فَاضْطَرَبَتْ لِذَلِكَ، وَغَلِبَتْ عَلَى أَعْصَابِهَا. وَسَاصِرُ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْزِلَ، فَأَقْفِرَ إِلَى رَقَبَتِهَا، لِأَقْبِلَهَا، وَأَزِيلَ كُلَّ مَا فِي نَفْسِهَا مِنْ عَنَبٍ وَمَوْجِدَةٍ.»

وَأَنَّهَا لَتَحَدَّثُ نَفْسَهَا بِذَلِكَ، إِذْ طَرَقَ سَمْعُهَا صَوْتُ يُنَادِيهَا!

فَوَقَفَتْ «أُمُّ يَعْفُورٍ»، وَالتَفَتَتْ إِلَى صَدِيقَتِهَا، قَائِلَةً: «إِلَى اللَّقَاءِ يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ! إِنَّ سَيِّدِي «الْوَلِيدَ» يُنَادِينِي «يَا أُمَّ خِدَاشٍ». وَلَا بُدَّ لِي مِنْ تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ. فَهَلْ غَفَرْتَ لِي زَلَّتِي، أَيُّهَا الصَّدِيقَةُ؟»

فَلَمْ تُجِبْهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ. فَذَهَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورٍ» مَحْزُونَةً، وَتَدَلَّى ذَنْبُهَا مِنَ الْأَلَمِ، وَأَغْرُورَقَتْ عَيْنَاهَا بِالْأُفْعَالِ.

أَمَّا صَاحِبَتُهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» فَقَدْ شَغَلَهَا أَمْرُ أَبْنَائِهَا، فَظَلَّتْ تُرْضِعُهُمْ — وَاحِدًا وَاحِدًا — حَتَّى إِذَا أَفْطَرُوا وَقَفَتْ مُتَثَابَةً، رَافِعَةً ذَيْلَهَا، مُقَوِّسَةً جِسْمَهَا. ثُمَّ قَالَتْ لِأَطْفَالِهَا: «لَقَدْ آتَى لَكُمْ أَنْ تَنَامُوا — أَيُّهَا الْأَعْزَاءُ — فَقَدْ اشْتَدَّ بِي أَلَمُ الْجُوعِ. وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْيَمَاسِ نَصِيبِي مِنَ الْقُوَّةِ. وَقَدْ سَالَ لُعَابِي شَوْقًا إِلَى لَحْمِ الْفَأْرَةِ. وَلَا مَعْدَى لِي عَنْ جَوْلَةٍ أَجُولُهَا فِي مَخْرَنِ الْغِلَالِ لِأَصْطِيَادِ فَأْرَةٍ. وَسَاعُودُ إِلَيْكُمْ بَعْدَ أَنْ أُوقَفَ فِي مَسْعَايَ. وَسَتَرُونَ أَنَّ لَحْمَ الْفَأْرَةِ هُوَ أَشْهَى طَعَامٍ فِي الدُّنْيَا.»



وَرَأَتْ سَيِّدَتَهَا «سُلَافَةَ» الصَّغِيرَةَ — وَهِيَ تَجْتَازُ الْمَطْبَخَ — فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهَا تُدَاعِبُهَا؛
 مُتَعَلِّقَةً بِثَوْبِهَا الْأَنِيقِ، ثُمَّ وَضَعَتْ طَرَفَ لِسَانِهَا فِي الصَّحْفَةِ — وَقَدْ جَوَّفَتْهُ فَأَصْبَحَ
 كَالْمِلْعَقَةِ — وَالتَّهَمَّتْ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ طَعَامٍ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى مَقْعَدٍ وَثِيرٍ، فَرَقَدَتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ
 التَّفَّ جِسْمُهَا وَتَحَوَّى، حَتَّى أَصْبَحَ مِثْلَ الْكُرَةِ.
 وَلَمْ تَنْسَ نَصِيحَهَا مِنَ الزَّيْنَةِ، وَلَا حَظَّهَا مِنَ التَّبَرُّجِ وَالْأَنَاقَةِ، فَأَقْبَلَتْ عَلَى شَعْرِهَا
 الْمُسَحَّاتِ تُرْجِلُهُ، وَعَلَى ذَيْلِهَا الْمُنْفُوشِ تَتَعَهَّدُهُ بِالْعِنَايَةِ، وَتُمِرُّ لِسَانَهَا عَلَى خُصَلَاتِ الشَّعْرِ
 الْبَارِزَةِ فَتَسَقِّتُهَا. وَوَقَفَتْ فِي مُنْتَصَفِ عَمَلِهَا لِنَطْرَدَ بُرْعُوْنَا حَبِيثًا كَانَ يَمْشِي عَلَى رَقَبَتِهَا،
 وَاسْتَأْنَفَتْ عَمَلَهَا قَائِلَةً: «لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَنْظِفَ وَجْهِي وَرَأْسِي».

ثُمَّ بَلَّكَ طَرْفَ يَدِهَا النِّبْضَاءِ بِلُعَابِهَا، وَمَرَّتْ بِهَا عَلَى رَأْسِهَا تَغْسِلُهُ، وَتَذَلُّكُهُ وَتُجَفِّفُهُ.
وَهَكَذَا نَسَقَتْ هِنْدَامَهَا، وَأَتَمَّتْ تَبْرُجَهَا، وَأَصْبَحَ إِهَابُهَا نَاعِمًا، وَوَجْهُهَا نَظِيفًا، فَتَأَهَّبَتْ
لِلْخُرُوجِ.

أَمَّا صَاحِبَتُهَا «أُمُّ يَعْفُورَ» فَقَدْ صَحِبَتْ سَيِّدَهَا «الْوَلِيدَ» فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ، وَطَافَتْ مَعَهُ
خِلَالَ الْحُقُولِ الْبَدِيعَةِ، حَتَّى أَمْسَيَا؛ فَعَادَتْ مُتَعَبَةً مَجْهُودَةً، وَذَهَبَتْ إِلَى مَرْقَدِهَا مَنُهَوَكَةً
الْقُوَى، لِتَتَنَّمَ.

وَجَرَتْ عَلَى عَادَتِهَا — قُبَيْلَ الرُّقَادِ — فَظَلَّتْ تَحْكُ فِرَاشَهَا بِمَخَالِبِ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَدُورُ
عَلَى نَفْسِهَا مَرَّاتٍ عِدَّةً. ثُمَّ اسْتَسَلَمَتْ لِلرُّقَادِ.

وَكَانَ نَوْمُهَا — فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ — مُضْطَرِبًّا، فَقَدْ ارْتَجَفَ جِسْمُهَا — فِي أَتْنَاءِ النَّوْمِ —
وَاضْطَرَبَ ذَيْلُهَا، وَظَلَّ يَضْرِبُ الْأَرْضَ، وَتَصَاعَدَتْ زَفَرَاتُهَا وَأَنَاتُهَا مِنَ الْأَلَمِ.

تَرَى مَاذَا أَصَابَ «أُمُّ يَعْفُورَ»؟

لَقَدْ رَأَتْ — فِي نَوْمِهَا — حُلْمًا مُزْعِجًا اضْطَرَبَتْ لَهُ أَعْصَابُهَا. لَقَدْ أَبْصَرَتْ صَدِيقَةَ
طُفُولَتِهَا «أُمَّ خِدَاشَ» وَهِيَ وَاقِفَةٌ أَمَامَهَا، وَقَدْ أَخْرَجَتْ مَخَالِبَهَا الطَّوِيلَةَ، وَهَمَّتْ بِأَنْ تَفْقَأَ
بِهَا عَيْنَيْهَا؛ فَنَهَضَتْ مِنْ رُقَادِهَا مَذْعُورَةً خَائِفَةً.

(٥) بَعْدَ أُسْبُوعٍ

وَمَضَى أُسْبُوعٌ طَوِيلٌ، وَالْقَطِيعَةُ مُسْتَحْكِمَةٌ بَيْنَ الصَّدِيقَتَيْنِ. فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» — ذَاتَ
يَوْمٍ — وَهِيَ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا: «مَهْمَا تُمِيعُنْ صَدِيقَتِي فِي هَجَرِهَا وَغَضَبِهَا، فَإِنِّي أُحِبُّهَا؛ كَمَا
أُحِبُّ أَوْلَادَهَا جَمِيعًا، وَإِنْ شَوْقِي إِلَى رُؤْيَيْهِمْ لَشَدِيدٌ.»

ثُمَّ لَمَحَتْ «أُمَّ خِدَاشَ» سَائِرَةً فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «هاها. ها هي ذِي
صَدِيقَتِي خَارِجَةً، فَمَاذَا عَلَيَّ إِذَا ذَهَبَتْ لِرُؤْيَا فُطَيْطَاتِهَا الْعَزِيزَاتِ؟»

ثُمَّ أَسْرَعَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» إِلَى غُرْفَتِهَا الصَّغِيرَةِ، وَوَقَفَتْ تَحْتَ صُنْدُوقِهَا، وَسَمِعَتْ
مَوَاهِنَ الْمُعْجَبِ الْمُطْرَبِ، وَرَأَتْهُنَّ خَارِجَاتٍ إِلَى حَافَةِ الصُّنْدُوقِ.

فَقَالَتْ: «ها هي ذي عُيُونُهُنَّ قَدْ تَفَتَحَتْ، فَأَصْبَحْنَ أَكْثَرَ جَمَالًا، وَأَبْهَى مَنَظَرًا مِمَّا كُنَّ مُنْذُ أُسْبُوعٍ. لَعَلَّكُنَّ تَرِدْنَ النُّزُولَ، أَيَّتُهَا الصَّغِيرَاتُ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَا هُوَ ذَا قِطٌّ يُطَلُّ بِرَأْسِهِ الْكَبِيرِ، وَيُنَحْنِي خَارِجَ الصُّنْدُوقِ، فَيَعْرِضُ، نَفْسَهُ لِحَظَرِ السُّقُوطِ عَلَى الْأَرْضِ.»

ثُمَّ صَاحَتْ — مَذْعُورَةٌ — تَقُولُ: «عُدِّي إِلَى مَكَانِكَ مِنَ الصُّنْدُوقِ، أَيُّهَا التَّاعِسُ، فَإِنَّكَ تَسْتَهْدِفُ لِلْوُقُوعِ.»

وَلَمْ تَكَدْ تَتِمُّ جُمْلَتُهَا، حَتَّى هَوَى الصَّغِيرُ مُتَدَحْرِجًا كَالْكُرَّةِ، وَسَقَطَ رَأْسُهُ وَسَطَ إِنَاءٍ مَمْلُوءٍ مَاءً. وَبَذَلَ الصَّغِيرُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِإِنْقَاذِ نَفْسِهِ مِنَ الْغَرَقِ، فَظَلَّ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، سَابِحًا — جُهْدَ طَاقَتِهِ — وَهُوَ رَافِعٌ أَنْفَهُ الْوَرْدِيَّ. وَسُرْعَانَ مَا أَدْرَكَهُ الْإِنْعِيَاءُ، وَتَسَرَّبَ قَلِيلٌ مِنَ الْمَاءِ إِلَى فَمِهِ، فَأَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ، وَغَوَّثَ يَطْلُبُ النُّجْدَةَ صَائِحًا: «مِاؤ! مِاؤ! أَدْرِكْنِي يَا أُمَاهُ! أَغِيثْنِي يَا أُمَاهُ!»

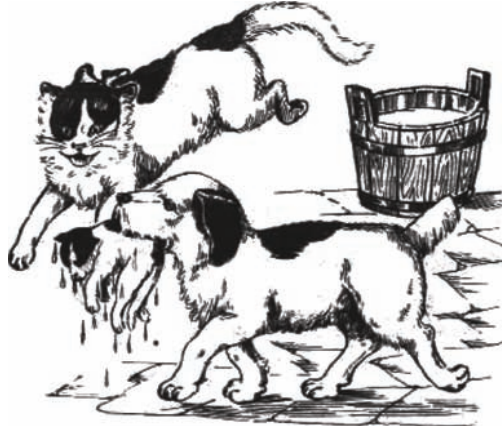
فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»: «يَا لِهَذَا الصَّغِيرِ التَّاعِسِ الْمُسْكِينِ! إِنَّهُ — لَا مَحَالَةَ — هَالِكٌ. فَمَاذَا أَصْنَعُ لِإِنْقَاذِهِ؟»

ثُمَّ عَنَتْ لَهَا فِكْرَةً رَشِيدَةً مُفَاجِئَةً، فَقَفَزَتْ إِلَى الْإِنَاءِ مُسْرِعَةً. وَكَانَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» — كَمَا أَسْلَفْنَا — صَغِيرَةً جِدًّا، فَوَصَلَ الْمَاءُ إِلَى أُذُنَيْهَا، وَلَكِنْ مُرُوءَتُهَا أَبَتْ عَلَيْهَا أَنْ تَتْرَكَ ذَلِكَ الْمُسْكِينَ يَتَعَرَّضُ لِلْمَوْتِ أَمَامَ عَيْنَيْهَا؛ فَلَمْ تُبَالِ مَا تَسْتَهْدِفُهُ مِنْ خَطَرٍ، وَأَمْسَكَتْ بِرَقَبَةِ الْقِطِّ الصَّغِيرِ، وَقَفَزَتْ بِهِ، وَهِيَ تَحْمِلُهُ إِلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ.

وَقَالَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَعْطُسُ وَيَزْتَعِشُ، وَرَقَدَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» الطَّيِّبَةُ الْقَلْبِ إِلَى جَانِبِهِ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ، تُوَسِّيهِ وَتُدْفِنُهُ، وَتَمْسَحُهُ بِلِسَانِهَا اللَّطِيفِ، وَتَحْنُو عَلَيْهِ — حُنُوَ الْأُمَمَاتِ عَلَى أَوْطَانِهِمَا — وَتَهْوُنُ عَلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنَ أَلَمٍ وَهَمٍّ. وَإِنَّهَا لَتُعْنِي بِهِ، إِذْ دَوَّتْ صَيْحَةً عَالِيَةً فِي الْمَكَانِ، فَتَلَفَّتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»، فَرَأَتْ أَمَامَهَا «أُمَّ خِدَاشَ» تَكَادُ تَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ، وَهِيَ تَقُولُ لَهَا مُهْتَاجَةً ثَائِرَةً: «مَاذَا تَصْنَعِينَ هُنَا، أَيَّتُهَا السَّفِيهَةُ؟»

فَارْتَاعَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»، وَامْتَلَأَ قَلْبُهَا رُغْبًا.

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» مُغْضَبَةً: «كَيْفَ جَرُوتِ عَلَى أَنْ تَغْسِلِي وَلَدِي، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَأْذِنِي فِي ذَلِكَ؟»



فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْقُورَ»، وَهِيَ تَكَادُ تَذُوبُ مِنْ فَرْطِ الْحَيَرَةِ وَالِاضْطِرَابِ: «أَصْغِي إِلَيَّ، يَا أُمُّ خِدَاشَ»، فَمَا أَنَا بِخَادِعَتِكَ، وَلَا بِكَادِبَتِكَ الْخَبَرِ: لَقَدْ سَقَطَ وَلَدُكَ الصَّغِيرُ «أَبُو الشَّرْقِ» فِي حَوْضِ الْمَاءِ، وَكَانَ يَقْفِزُ لَاهِيًا فَوْقَ الصُّنْدُوقِ وَ....»

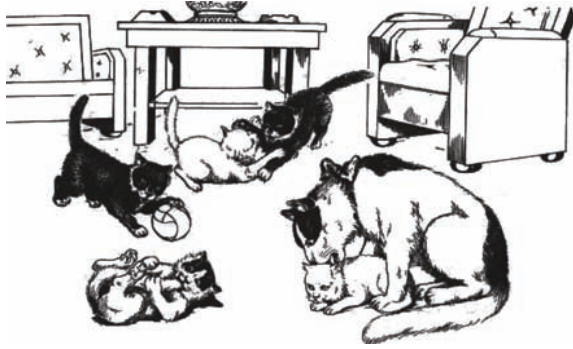
فَقَالَ «أَبُو الشَّرْقِ»، وَهُوَ يَبْكِي: «لَقَدْ صَدَقَتِكَ الْقَوْلَ — يَا أُمَاهُ — وَقَدْ هَوَيْتُ إِلَى حَوْضِ الْمَاءِ، عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ، وَأَشْرَفْتُ عَلَى الْغَرَقِ، وَلَوْلَاهَا لَأَصْبَحْتُ فِي عِدَادِ الْهَالِكِينَ». فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا «أُمُّ خِدَاشَ»، وَقَدْ أَكْبَرَتْ لَهَا تِلْكَ الْمُرُوءَةُ، وَشَكَرَتْ لَهَا صَنِيعَهَا، وَقَالَتْ لَهَا فِي ضَرَاعَةٍ وَخُشُوعٍ: «مَنْ لِي بِمُكَافَأَتِكَ عَلَى هَذِهِ الْيَدِ الْبَاقِيَةِ، الَّتِي لَنْ أَنْسَاهَا لِكَ مَدَى الْحَيَاةِ؟ لَقَدْ أَسْلَفْتُ إِلَيْكَ الْإِسَاءَةَ، وَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ تَجْزِيَنِي عَلَيْهَا بِالْإِحْسَانِ. فَهَلْ تَغْفِرِينَ لِي زَلَّتِي، أَيُّنْهَا الصَّدِيقَةُ الْكَرِيمَةُ الْبَارَةُ؟»

فَامْتَلَأَ قَلْبُ الْكَلْبَةِ فَرَحًا، وَظَلَّتْ تَقْفِزُ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ، قَائِلَةً: «لَقَدْ غَفَرْتُ لِكَ كُلَّ شَيْءٍ. عَلَى أَنَّي لَنْ أَنْسَى أَنَّي كُنْتُ سَبَبًا — مُنْذُ أَيَّامٍ — فِي إِسَاءَتِكَ وَإِغَارِ صَدْرِكَ عَلَيَّ. وَقَدْ تَمَّتْ سَعَادَتِي — الْآنَ — بَعْدَ أَنْ سَادَ الصَّفَاءُ قُلُوبُنَا، وَعُدْنَا صَدِيقَتَيْنِ حَمِيمَيْنِ.»

وَأَسْرَعَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» إِلَى صَغِيرِهَا — وَكَانَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ وَهُوَ مُلْقَى عَلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ — فَحَمَلَتْهُ بِأَسْنَانِهَا، وَأَعَادَتْهُ إِلَى الصُّنْدُوقِ، وَظَلَّتْ هَذِهِ الْكَارِثَةُ شُغْلَهَا الشَّاعِلَ، طَوْلَ يَوْمِهَا.

(٦) بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعَ

وَمَرَّتْ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ أَسَابِيعُ ثَلَاثَةٍ، وَأَصْبَحَتِ الْخَمْسُ الصَّغِيرَاتُ قَادِرَةً عَلَى اللَّعْبِ فِي غُرْفِ الْبَيْتِ، وَالْجَرِي فِي فِنَائِهِ وَسِرْدَابِهِ.



وَظَلَّتْ تَقْفُزُ وَتَتَدَحْرَجُ مَا شَاءَتْ لَهَا رَغَبَاتُهَا، وَتَشْتَبِكُ — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — فِي مَنَاوِشَاتٍ ظَرِيفَةٍ. وَيُطَارِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَفَوْقَ مَا تَشْتَهِي وَتُرِيدُ.
وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَلْعَبُ فِي عَزَلَةٍ عَنْ إِخْوَتِهِ. وَيَدُورُ بِذَنَبِهِ، كَمَا تَدُورُ النَّحْلَةُ، وَيُدَاعِبُ ذَيْلَهُ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشًا كُلَّمَا رَأَاهُ يَسْبِقُهُ فِي أَثْنَاءِ جَرِيهِ، ثُمَّ يَغْضَبُ مِنْهُ وَيَتَوَرَّ ثَائِرُهُ عَلَيْهِ، فَيُنْشِبُ أُنْيَابَهُ فِي ذَيْلِهِ وَيَعْضُهُ، ثُمَّ يَصْرُخُ مِنْ فَرَطِ الْأَلَمِ، وَيُسْرِعُ إِلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ، نَادِمًا عَلَى عَمَلِهِ، ثُمَّ لَا يَلْبُثُ — بَعْدَ أَنْ يَنْسَى الْأَلَمَ — أَنْ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ مَا صَنَعَ!
أَمَّا «خِدَاشُ» فَقَدْ كَانَتْ لَا تَفَارِقُ أُمُّهَا فِي حَلٍّ وَتَرَحَالٍ. وَكَانَتْ أُمُّهَا تَضَعُ يَدَيْهَا الْبَيْضَاوَيْنِ عَلَى رَقَبَةِ «خِدَاشٍ»، ثُمَّ تَحُكُّ «خِدَاشَ» أَنْفَهَا الصَّغِيرَ الْوَرْدِيَّ بِأَنْفِ أُمِّهَا



مُتَوَدِّدَةً مُتَلَطِّفَةً. وَقَدْ سَعِدَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» بِأَبْنَائِهَا الْأَعْزَاءِ، وَكَانَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» تُشَاطِرُهَا هَذِهِ السَّعَادَةَ، وَتَفْرَحُ لِفَرَحِهَا.

وَكَانَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» تَقْسُو — أحياناً — عَلَى وَلَدِهَا «أَبِي غَزْوَانَ» رَغْبَةً فِي تَقْوِيمِهِ وَتَهْذِيبِهِ، لِأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ تَنْشِئَ أَوْلَادُهَا أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ، وَتَطْبَعَهُنَّ عَلَى غِرَارِ الْقِطَاطِ الْمُهْذَبَةِ، وَتُعَوِّدَهُنَّ النُّظَامَ وَالطَّاعَةَ وَحُسْنَ الْأَدَبِ. وَلَا تَأَلُو جُهْدًا فِي غَسْلِهِنَّ وَتَنْظِيفِهِنَّ دَائِمًا.

وَكَانَ «أَبُو غَزْوَانَ» — عَلَى الْحَقِيقَةِ — مَصْدَرُ عَنَائِهَا وَالْمِهَامَا؛ لِأَنَّهُ شَرِسُ الطَّبْعِ، مُحِبٌّ لِلْمُشَاكَسَةِ، مَيَّالٌ إِلَى الْأَذَى.

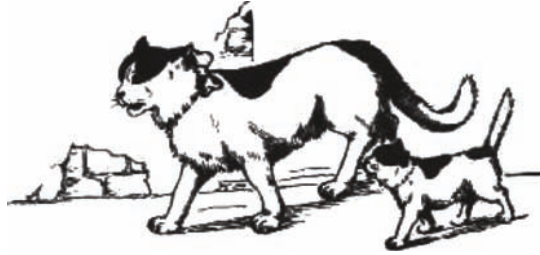
وَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ تَرَى فِيهِ صُورَةً كَامِلَةً لِعَمِّهِ «أَبِي السَّنَانِيرِ». وَهُوَ قِطٌّ هَرِمٌ، يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي الْمَخَاطَرَاتِ، وَاقْتِنَاصِ الطُّيُورِ، وَالْجَرِيِّ عَلَى الْمَيَازِبِ.

وَكَانَتْ تُكَافِي الْمُوَدَّبَ بِفَآرَةٍ، تَضْطَاذُهَا لَهُ!

(٧) تَفَرُّقُ الشَّمْلِ

وَعَادَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» — ذَاتَ مَسَاءٍ — مِنْ تَجَوُّلِهَا، وَفِي فَمِهَا فَاَرَةٌ، وَقَفَرَتْ إِلَى صُنْدُوقِهَا فَرِحَانَةً، وَهِيَ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً: «مَا أَشَدَّ فَرَحَ أَوْلَادِي بِهَذِهِ الْهَدِيَّةِ الثَّمِينَةِ، وَمَا أَشَدَّ ابْتِهَاجَهُمْ بِهَذِهِ الْأَكْلَةِ الْفَاحِرَةِ!»

وَمَا إِنَّ وَضَعْتَ رِجْلَهَا فِي الصُّنْدُوقِ، حَتَّى أَخْرَجْتَهَا مَذْهُولَةً حَائِرَةً، وَطَفِقَتْ تَعْدُو فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ كُلِّهِ مَشْدُوهَةً وَلَهَى، وَتَصِيحُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مَبْحُوحٍ: «إِلَيَّ يَا أَوْلَادِي! تَرَى: أَيُّ حَادِثٍ أَلَمْ بِكُمْ؟ إِلَيَّ يَا أَبَا الشَّرْقِ! إِلَيَّ يَا أُمَّ الشَّرْقِ! إِلَيَّ يَا خِدَاشُ!» فَلَا تَسْمَعُ جَوَابًا. وَبَحَنَتْ تِلْكَ الْأُمُّ النَّاعِسَةَ الْمُسْكِينَةَ — فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْبَيْتِ وَسَرَادِيبِهِ، وَمَخَابِيهِ وَأَفْنِيَّتِهِ، وَفِي مَخْزَنِ الْغِلَالِ — عَنْ أَوْلَادِهَا، فَلَمْ تَعُزْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ. ثُمَّ لَقِيَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ» قَادِمَةً عَلَيْهَا، وَهِيَ مَحْزُونَةٌ كَسِيرَةُ الْقَلْبِ، مُطَاطِنَةُ الرَّأْسِ، فَاسْرَعَتْ إِلَيْهَا تَسْأَلُهَا عَنْ أَوْلَادِهَا، فَجَمَعَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ» فِي لَهَجَةٍ حَزِينَةٍ: «لَمْ يَبْقَ مِنْ أَوْلَادِكَ، إِلَّا «أَبُو الشَّرْقِ» وَحْدَهُ. وَهُوَ يَبْكِي تَحْتَ السُّلَمِ، أَمَّا إِخْوَتُهُ فَقَدْ أَخَذُوا جَمِيعًا. وَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَضَعُهُنَّ فِي سَلَّتِيهِ وَيَحْمِلُهُنَّ خَارِجَ الْبَيْتِ. فَاشْتَدَّ غَضَبِي وَانْزِعَاجِي لِذَلِكَ. وَهَمَمْتُ أَنْ أَقْفَزَ فِي وَجْهِهِ، وَظَلَلْتُ أَمْلَأُ الْبَيْتَ نُبَاحًا، وَأَبْحَثُ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَلَمْ أَهْتَدِ إِلَيْكَ. ثُمَّ سَمِعْتُ سَيِّدَتَنَا تَقُولُ: إِنَّ الْقِطَاطَ قَدْ حُمِلَتْ إِلَى دُسْكَرَتِهَا الْكَبِيرَةِ، الْمَمْلُوءَةِ بِأَسْرَابِ الْفَأْرِ لِمُطَارَدَتِهَا، وَسَيُعْنَى بِهَا الْخَدْمُ الْعَنَائَةَ كُلَّهَا.



فَحَفَفَ مِنْ وَجْدٍ «أُمَّ خِدَاشَ» وَجَزَعَهَا، مَا عَلِمَتْهُ مِنْ حِرْصِ سَيِّدَتِهَا عَلَى أَبْنَائِهَا الْقِطَاطِ، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ أَيَّامًا طَوِيلًا تَجْرِي فِي الْغُرْفِ وَالْحَدِيقَةِ وَالطَّرِيقِ، وَهِيَ تَمُوءُ فِي حُزْنٍ وَأَلَمٍ، مُنَادِيَةً أَبْنَاءَهَا بِأَسْمَائِهِمْ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْوَجْدِ وَالْأَسَى عَلَى فِرَاقِهِمْ.

(٨) وَلادَةُ «أُمِّ يَعْفُورٍ»

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ تَتَرَى. وَذَا صَبَاحٍ دَخَلْتُ «أُمَّ خِدَاشَ» الْمَطْبَخَ، فَاسْتَرَعَى بَصَرَهَا شَيْءٌ غَرِيبٌ فِيهِ. فَاسْتَدَّ عَجَبُهَا مِمَّا رَأَتْ. وَكَانَتْ لَا تُطِيقُ أَنْ تَرَى أَقَلَّ تَغْيِيرٍ يَحْدُثُ فِي الدَّارِ، فَقَوَّسَتْ ظَهْرَهَا، وَقَالَتْ — تُحَدِّثُ نَفْسَهَا — مُتَعَجِّبَةً: «أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ إِنَّهَا سَلَّةٌ جَدِيدَةٌ!» وَأَبَتْ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهَا، مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَهَا سُوءٌ. فَتَرَا جَعَتْ عَنْهَا خُطُواتٍ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَبِثَتْ تَرْفُبُهَا حِينًا. فَلَمَّا رَأَتْهَا سَاكِنةً لَا يَتَحَرَّكُ فِيهَا شَيْءٌ اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهَا، وَاقْتَرَبَتْ مِنَ السَّلَّةِ، وَتَسَلَّقَتْ حَافَتَهَا، وَأَطْلَتْ بِرَأْسِهَا فِيهَا، فَلَمْ تَرَ إِلَّا حَشِيشًا يَابِسًا مُعْطَرًا، فَلَمْ تَدْرِ: مَاذَا يُرَادُ بِهِ؟ وَظَلَّتْ تُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ تَهْتِدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ الْخَفِيِّ.

وإِنَّهَا لَغَارِقَةٌ فِي تَفْكِيرِهَا، إِذْ قَدِمَتْ «أُمُّ يَعْفُورٍ» وَحَيْثُهَا قَائِلَةٌ: «أَلَا تَعْرِفِينَ — يَا أُمَّ خِدَاشَ — أَنَّ هَذِهِ السَّلَّةَ، هِيَ سَرِيرِي الْجَدِيدِ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ بِالْإِفْضَاءِ إِلَيْكَ — مُنْذُ أَيَّامٍ — بِهَذَا السَّرِّ يَا صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ.»

فَقَالَتْ «أُمَّ خِدَاشَ»: «أَيُّ سَرٍّ تَعْنِينَ؟»

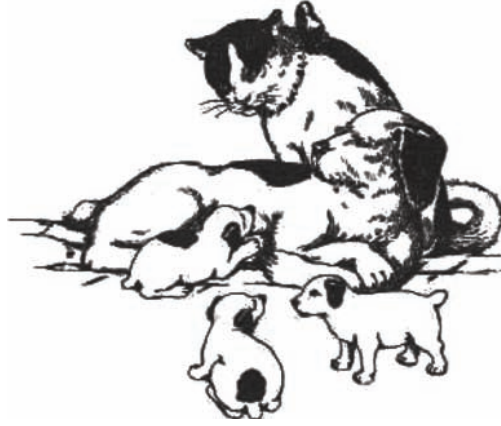
فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورٍ»: «اعْلَمِي أَنَّي سَأُصْبِحُ أُمًّا بَعْدَ قَلِيلٍ. وَقَدْ أَحْضَرْتُ لِي سَيِّدَتِي «سُلَافَةُ» هَذِهِ السَّلَّةَ مَسَاءَ أَمْسٍ وَقَالَتْ لِي: «هَآكِ سَرِيرُكَ الْجَدِيدِ، آيْتُهَا الْكَلْبَةُ الْأَمِينَةُ الْمُخْلِصَةُ، لِيَسْتَرِيحَ فِيهِ أَوْلَادُكَ الْأَعْزَاءُ. وَقَدْ فَطَنْتُ تِلْكَ الْفَتَاةَ الذَّكِيَّةَ إِلَى حَقِيقَةِ أَمْرِي، وَأَدْرَكْتَ السَّرَّ الَّذِي حَجَبْتُهُ عَنْ جَمِيعِ مَنْ فِي الْبَيْتِ. وَقَدْ كُنْتُ أَوْثَرُ أَنْ أَفَاجِئَهُمْ بِمَا يُدْهِشُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَذْرَكُوا كُلَّ شَيْءٍ!»

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلٌ، وَامْتَلَأَ الْبَيْتُ فَرَحًا بِوِلَادَةِ «أُمِّ يَعْفُورٍ».

وَكَانَتْ «سُلَافَةُ» مُبْتَهَجَةً بِذَلِكَ، وَقَدْ امْتَلَأَ قَلْبُهَا سُورًا، حِينَ رَأَتْ أُمَامَهَا ثَلَاثَةَ أَجْسَامٍ ضَخْمَةٍ تَمَلَأَ قَاعَ السَّلَّةِ.

وَسُرَّعَانَ مَا قَدِمَتْ «أُمَّ خِدَاشَ» لِتُهْنِيَّ صَدِيقَتَهَا، وَتَقُولَ لَهَا: «شَدَّ مَا بَهَجَنِي وَلَادَتُكَ، آيْتُهَا الصَّدِيقَةَ الْحَبِيبَ. وَلَكِنِّي شَدِيدَةُ الْعَجَبِ مِمَّا أَرَى، فَإِنَّ أَوْلَادَكَ لَا يُشَبِّهُونَكَ فِي أَيِّ سِمَةٍ مِنْ سِمَاتِكَ حَتَّى لِيَحْيِلَ إِلَى مَنْ يَرَاهُمْ أَنَّهُمْ أَغْرَابٌ عَنْكَ!»

ثُمَّ التَّفَقَّتْ إِلَى أَحَدِ أَبْنَائِهَا قَائِلَةً: «لَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الصَّغِيرُ اللَّطِيفُ، مَا أَجْمَلَ شَعْرَكَ الْجَعْدَ، وَأَذْنُكَ الطَّوِيلَتَيْنِ! مَاذَا أَسْمَيْتَهُمْ، يَا أُمَّ يَعْفُورَ.»



فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» وَوَجَّهَهَا يَنْطَلِقُ بِشَرًّا وَسُرُورًا: «أَمَّا هَذَا الْكَلْبُ السَّمِينُ، فَقَدْ
 أَسَمَيْتُهُ «الْوَاشِقَ». وَسَيَكُونُ — فِيمَا أُنْتَوَسَمُ — طَيِّبَ الْقَلْبِ، لَا يُحِبُّ الْخِصَامَ، وَلَا يَجْنَحُ
 إِلَى الْأَذَى، أَمَّا تِلْكَ الْكَلْبَةُ الْجَائِمَةُ أَمَامَكَ، فَقَدْ دَعَوْتُهَا «أُمُّ وَازِعٍ». وَأَمَّا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ، فَقَدْ
 أَسَمَيْتُهُ «وَتَّابًا». وَهُوَ — فِيمَا أَحْدَسُ — مَشَاكِسُ. فَإِنَّ مَخَايِلَ الشَّرَاسَةِ تَبْدُو عَلَيْهِ، فَهُوَ
 — فِيمَا يُلُوحُ — أَخْبَثُ مِنْ قَرْدٍ!»
 فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» مُعَابِتَةً مُدَاعِبَةً: «شَدَّ مَا ظَلَمْتَ الْقَرْدَ. فَهَلَّا قُلْتَ: إِنَّهُ أَخْبَثُ مِنْ
 إِنْسَانٍ!»

(٩) مَرَضُ «أُمِّ يَعْفُورَ»

وَكَانَ الصَّغَارُ يَطْعُمُونَ، وَالصَّدِيقَتَانِ تَنْظُرَانِ إِلَيْهِمْ، وَتَرْعِيَانِهِمْ بِعُيُونٍ كُلُّهَا حُنًّا
 وَإِخْلَاصًا. ثُمَّ قَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «إِصْغِي إِلَيَّ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْإِعْتِذَارِ إِلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْهَفْوَةِ
 الَّتِي أَتَيْتُهَا مِنْذُ حِينٍ؛ فَإِنِّي أَرَى أَنَّ صِغَارِي عُمَيَانُ أَيْضًا. وَلَا أَرَى فِي ذَلِكَ مَا يَنْقُصُ مِنْ
 حُسْنِهِمْ وَجَمَالِهِمْ. بَلْ إِنِّي لَأَرَاهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا غَايَاتِ الْجَمَالِ وَالرَّوْعَةِ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»: «كُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي قَدْ نَسِيتُ مَوْجِدَتِي عَلَيْكَ، مُنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَذْكُرُهَا قَطُّ. وَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ رُؤْيَا أَطْفَالِكَ يَلْعَبُونَ مَعَ وَلَدِي «أَبِي الشَّرْقِ». وَسَيَرَى فِيهِمْ خَيْرَ رُفَقَةٍ: يَأْنَسُ بِهِمْ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِمْ».

فَشَكَرَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ» لِصَدِيقَتِهَا «أُمِّ خِدَاشَ» كَرَمَ نَفْسِهَا، وَصَفَحَهَا عَنِ الْإِسَاءَةِ وَأَخَذَتْ نَفْسَهَا — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا، وَالْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ. وَلَزِمَتْ فِرَاشَهَا، بِإِذْنِ كُلِّ وَصْعِهَا فِي السَّهْرِ عَلَى أَطْفَالِهَا، وَتَعَهُدُهُمْ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، شَأْنَ الْأُمَمَاتِ دَائِمًا. وَأَصْبَحَتْ لَا تَفْكَرُ فِي التَّجَوُّلِ وَالْجَرِيِّ، وَآثَرَتْ أَنْ تَتَعَهَّدَ أَسْرَتَهَا عَلَى كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهَا.

وَلَمَّا فَتَحَ الْكِلَابُ الصَّغَارُ أَعْيُنَهُمْ — لِلْمَرَّةِ الْأُولَى — كَانَتْ أُمُّهُمْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنِ الْفَرَحِ بِهَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ السَّارَّةِ، لِأَنَّ الْمَرَضَ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — قَدْ حَلَّ بِهَا، وَنَهَكَ قُوَاهَا. وَقَدْ شَكَتْ إِلَى صَدِيقَتِهَا «أُمِّ خِدَاشَ» — حِينَ قَدِمَتْ لِزِيَارَتِهَا فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ — مَا حَلَّ بِهَا مِنَ السَّقَامِ، وَقَالَتْ لَهَا فِي لَهَجَةٍ حَزِينَةٍ: «لَقَدْ قَضَيْتُ — أَمْسَ — لَيْلَةً مُفْرَعَةً هَائِلَةً، وَلَا أَدْرِي: مَاذَا أَصَابَنِي؟ وَقَدْ عَافَتْ نَفْسِي — مُنْذُ ظَهَرِ أَمْسَ — وَعَجِزْتُ عَنْ تَعَهُدِ صِغَارِي الضَّعَافِ. وَلَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ يُؤُولُ أَمْرُهُمْ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»: «إِنَّ شِفَاءَكَ مَيْسُورٌ، فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، وَلِكُلِّ مَرَضٍ عِلَاجًا شَافِيًا. وَلَعَلَّ أُمِّكَ قَدْ عَرَفَتْكَ بِذَلِكَ النَّبَاتِ الْقَصِيرِ، الَّذِي يَنْبُتُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ، وَحَدَّثْتُكَ عَنْ فَائِدَتِهِ الْمُحَقَّقَةِ. فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْخَوَاصِّ الْعَجِيبَةِ، مَا يَكْفُلُ لِكَ الشِّفَاءِ الْعَاجِلِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

فَقَالَتْ «أُمُّ يَغْفُورَ»: «إِنِّي مُلَبِّيَّةٌ نَصِيحَتِكَ، فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ بِجَرَّاسَةِ أَوْلَادِي، حَتَّى أَكُلَّ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»: «حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ، يَا أُمُّ يَغْفُورَ». وَقَدْ خَفَّ أَلَمُ الْكَلْبَةِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ بِنَصِيحَةِ صَاحِبَتِهَا، وَشَكَرَتْ لَهَا حُسْنَ رَأْيِهَا. ثُمَّ وَدَّعَتْهَا «أُمُّ خِدَاشَ» لِتَنْجِرَ بَعْضَ شَأْنِهَا.

وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ، طَفِقَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» تَلَحُّسَ وَلَدِهَا «أَبَا الشَّرْقِ» — بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ عَدَاءَهُ — ثُمَّ أَسْرَعَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا؛ فَحَزَنَهَا مَا رَأَتْهُ عَلَيْهَا مِنْ أَمَارَاتِ الضَّعْفِ وَالْأَلَمِ. فَقَدْ

وَجَدْتُهَا مَطْرُوحَةً عَلَى الْأَرْضِ، لَا حَرَكَ بِهَا؛ وَقَدْ جَمَدَتْ سَوْقُهَا، وَسَكَنَ ذَنْبُهَا؛ فَأَصْبَحْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ!



فَصَرَخْتُ مُتَأَلِّمَةً: «وَيْلَاهُ! لَقَدْ مَاتَتْ صَدِيقَتِي الْحَمِيمُ!» فَتَحَرَّكَتُ «أُمُّ يَعْفُورَ» حَرَكَةً صَغِيرَةً، وَهِيَ تَرْتَعِشُ، وَتَتَنَفَّسُ بِجَهْدٍ جَهِيدٍ. فَسَأَلْتُهَا «أُمُّ خِدَاشَ» فِي صَوْتٍ مَمْلُوءٍ حُزْنًا وَإِشْفَاقًا: «أَلَمْ يُجِدِ الدَّوَاءَ الَّذِي وَصَفْتَهُ لَكَ، يَا عَزِيزَتِي؟» فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَقَدْ كَادَتْ تَخْنُقُهَا الْعَبْرَاتُ: «كَلَّا — يَا أُمُّ خِدَاشَ — لَقَدْ انْتَابَتْنِي حُمَى خَبِيثَةٌ، وَأَصْبَحْتُ أَحْسُ أَنْ فَمِي يَلْتَهَبُ. وَزَادَ حُزْنِي، وَأَقْلَقَ بَالِي: مَا سَمِعْتُهُ فِي هَذَا الصَّبَاحِ!»

ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ كَلَامَهَا قَائِلَةً: «أَهْ لَوْ تَعْلَمِينَ وَقَعَ تِلْكَ الْكَارِثَةُ الْمُفَاجِئَةُ! لَقَدْ جَاءَ سَيِّدِي — فِي هَذَا الْيَوْمِ — وَمَا إِنْ رَأَيْتِي، حَتَّى قَالَ: إِنَّ «أُمَّ يَعْفُورَ» مُصَابَةٌ بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَلَا بُدَّ مِنْ إِقْصَائِهَا. فَاِمْتَلَأْ قَلْبِي دُعْرًا حِينَ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ الْهَائِلَ، وَانْقَضَ عَلَى قَلْبِي انْقِضَاضُ الصَّاعِقَةِ. وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَى بَنَاتِ أَعْمَامِي مُصَابَةً بِهَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ، وَأَخَذَهَا الرِّجَالُ وَقَتَلُوهَا. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ مَصْرِعِي وَشِيكُ، وَأَنْتِي مُلَاقِيَةٌ مِثْلَ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمَفْرَعَةِ. فَكَيْفَ يَعْيشُ أَطْفَالِي الْمَسَاكِينُ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ»، وَالِدُومُوعُ تَتَرَجَّحُ فِي مَاقِيهَا: «هُونِي عَلَيْكِ — يَا أُخْتَاهُ — وَلَا تَتَعَجَّلِي الْحَوَادِثَ. فَلَعَلَّ السَّيِّدَ وَاهِمٌ فِي حُسْبَانِهِ!»

وَلَمْ تُتِمَّ قَوْلَهَا، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ بَيْطَرِيٌّ، قَوِيُّ الْبَاسِ، وَفِي يَدِهِ حَبْلٌ. فَاقْتَرَبَ مِنْ «أُمِّ يَعْفُورَ» لِيَرْبُطَهَا بِالْحَبْلِ، فَعَلَا نُبَاحُهَا، وَكَثَّرَتْ عَنْ أَنْيَابِهَا الْمُحَدَدَةِ، وَصَاحَتْ مُتَوَعِّدَةً: «الْوَيْلُ لِكُلِّ مَنْ يَمْسُنِي بِسَوْءٍ!»



فَقَالَتْ لَهَا «أُمُّ خِدَاشٍ» مُتَوَسِّلَةً ضَارِعَةً: «بِرَبِّكَ لَا تَتِمَادِنِي فِي عِنَادِكَ، فَإِنَّهُمْ أَقْوَى مِنَّا، أَيُّنْهَا الْعَزِيزَةُ. وَلَيْسَ مِنَ الْحَزَامَةِ أَنْ نَلِجَ فِي مُكَابَرَةٍ لَا تُثْمِرُ إِلَّا شَرًّا.»
فَأَذَعَنْتُ «أُمَّ يَعْفُورَ» لِنَصِيحَةِ صَاحِبَتِهَا، وَأَسْرَعْتُ إِلَى أَوْلَادِهَا، فَقَبَّلْتُهُمْ جَمِيعًا، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِمْ آخِرَ نَظَرَةٍ، مُودَّعَةً!
ثُمَّ جَرَّهَا الرَّجُلُ، بَعْدَ أَنْ شَدَّهَا إِلَى حَبْلِهِ، وَكَمْ فَاهَا بِالْحَدِيدِ، فَسَارَتْ تَتَّبِعُهُ مَكْلُومَةً حَزِينَةً.

(١٠) مُرْضِعَةُ الْيَتَامَى

وَخَرَجَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» تَتَّبِعُ الطَّبِيبَ رَاغِمَةً، وَمَشَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» فِي أَثَرِهَا، حَتَّى بَلَغَتْ فِنَاءَ الْبَيْتِ، وَقَلْبُهَا مُنْقَبِضٌ حَزِينٌ، ثُمَّ وَدَّعَتْهَا بِكَلِمَاتٍ تَفِيضُ إِخْلَاصًا وَحُنُوءًا، وَتَمَنَّتْ لَهَا الرُّجُوعَ سَالِمَةً.

وَلَمَّا عَادَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» إِلَى الْبَيْتِ، سَمِعَتْ الْيَتَامَى الثَّلَاثَةَ — أَبْنَاءَ «أُمِّ يَعْفُورَ» — يَعْوُونَ عَوَاءً مُرْتَفِعًا، وَيُنَادُونَ أُمَّهُمْ، مُسْتَوْحِشِينَ لِبُعْدِهَا عَنْهُمْ. فَوَقَفْتُ «أُمَّ خِدَاشٍ»

تُنصِتُ إِلَى عَوَائِهِمُ الْحَزِينَ لَحْظَةً، وَتُفَكِّرُ فِيمَا تَفْعَلُهُ، لِتُؤَسِّسَهُمْ وَتُسَلِّبَهُمْ؛ ثُمَّ انْدَفَعَتْ إِلَى صُنْدُوقِهَا، وَأَمْسَكَتْ وَلَدَهَا مِنْ عُنُقِهِ، وَحَمَلَتْهُ إِلَى سَلَّةِ الْكِلَابِ الصَّغَارِ، قَائِلَةً: «لَقَدْ أَصْبَحَ لِي أَوْلَادٌ أَرْبَعَةٌ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ؛ وَسَأَلْتَنِي — فِي سَبِيلِ تَرْبِيَّتِهِمْ — مِنْ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ شَيْئًا كَثِيرًا. وَلَكِنْ الْمَرْوَةُ وَالرَّحْمَةُ تَقْضِيَانِ عَلَيَّ أَنْ أَحْتَمِلَ هَذَا الْوَاجِبَ، رَاضِيَةً، قَرِيرَةً الْعَيْنِ؛ فَلَيْسَ لِي فِي تَرْكِهِمْ مِنْ حِيلَةٍ عَلَى أَيِّ حَالٍ!»

وَضَلَّتْ «أُمُّ خِدَاشَ» تَلْحَسُ الْكِلَابَ الثَّلَاثَةَ، وَقَدْ أَقْبَلْنَ عَلَى طِفْلِهَا «أَبِي الشَّرْقِ» يَشْمَمْنَهُ وَهْنٌ مَحْزُونَاتٌ. فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» لَوَلَدِهَا: «إِنَّكَ يَا «أَبَا الشَّرْقِ» أَكْبَرُ مِنْهُمْ سِنًّا، فَلْتَكُنْ لَهُنَّ مَثَلًا صَالِحًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُهْتَدَى. وَلَيْسَ لِي أَمْنِيَّةٌ أَشْهَى إِلَى نَفْسِي مِنْ أَنْ تَعِيشُوا جَمِيعًا — فِي وَفَاقٍ — حَيَاةً سَعِيدَةً، وَأَنْ تُصْبِحُوا جَمِيعًا إِخْوَةً مُخْلِصِينَ، وَأَصْفِيَاءَ مُتَحَابِّينَ؛ فَهَلْ وَعَيْتَ هَذِهِ النَّصِيحَةَ، يَا أَبَا الشَّرْقِ؟»

ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى الْيَتَامَى، قَائِلَةً: «يَلُوحُ لِي أَنْكُمْ جَائِعُونَ!» وَنَظَرَتْ إِلَى وَلَدِهَا، وَقَالَتْ لَهُ: «أَمَّا أَنْتَ — يَا أَبَا الشَّرْقِ — فَقَدْ كَبُرَتْ سِنَّكَ، وَأَصْبَحْتَ قَادِرًا عَلَى الْأَكْلِ مَعِيَ فِي صَحْفَتِي، مُنْذُ الْيَوْمِ.»

ثُمَّ رَفَعَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» قَرِيبًا مِنَ الْيَتَامَى، وَضَلَّتْ تُرْضِعُهُمْ، حَتَّى ارْتَوَوْا جَمِيعًا مِنْ لَبَنِهَا الدَّافِئِ الدَّسِمِ، فَنَامُوا قَرِيرِي الْأَعْيُنِ، مُرْتَاحِي الْقُلُوبِ. وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُعْجَبًا مَسْرُورًا، فَهَمَسَتْ أُمُّهُ فِي أُذُنِهِ قَائِلَةً: «تَعَال — يَا وَلَدِي — عَلَى أَطْرَافِ أَقْدَامِكَ — فِي غَيْرِ جَلْبَةٍ وَلَا ضَوْضَاءٍ — حَتَّى لَا تُوقِظَهُمْ وَهَلُمَّ، فَالْعَبْ قَلِيلًا، لِتُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِكَ.» فَسَارَ مَعَهَا «أَبُو الشَّرْقِ» حَتَّى بَعُدَ عَنْ غُرْفَةِ الْيَتَامَى. وَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشَ» فِي نَفْسِهَا: «مَا أَرَوْحَ عَهْدَ الطُّفُولَةِ وَأَجْمَلُهُ! وَمَا أَسْرَعَ مَا يَنْسَى الْأَطْفَالُ هُمُومَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ بِأَيِّسَرِ شَيْءٍ!»

وَلَمَّا حَلَّ الْمَسَاءُ، جَاءَتْ «سُلَافَةُ» وَوَلَدُهَا، وَهُمَا يَمْشِيَانِ — فِي خِفَّةٍ وَحَذَرٍ — حَتَّى لَا يُزْعِجَا الْيَتَامَى الْكِلَابَ الصَّغَارَ. فَقَالَتْ «سُلَافَةُ»، وَقَدْ وَضَعَتْ إِصْبَعَهَا عَلَى فَمِهَا: «صَهْ! صَهْ (لَا تَنْبَسْ بِنَبْتِ شَفَةِ)!»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ الْمُتَحَابَّةُ — الْمُؤْتَلِفَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ الْكِلَابِ وَالْقِطَّتَيْنِ — رَاقِدَةً جُنْبًا إِلَى جَنْبٍ. وَكَانَ أَنْفُ «الْوَاشِقِ» ظَاهِرَ السَّوَادِ، وَقَدْ بَدَأَ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْ «أُمِّ خِدَاشَ» وَهِيَ مُسْتَعْرِقَةٌ فِي نَوْمِهَا الْهَنِيِّ، وَأَحْلَامِهَا اللَّذِيذَةِ.



وَكَانَ رَأْسُ «وَثَّابٍ» — الْجَعْدُ الشَّعْرِ — مُوسَدًا رَقَبَةً «أَبِي الشَّرْقِ» فَجَمَعَتْ «سُلَافَةٌ»
قَائِلَةً: «يَا لَهَا مِنْ قِطْعَةٍ كَرِيمَةِ النَّفْسِ، مَوْفُورَةٍ الْحَنَانِ!»

(١١) اجْتِمَاعُ الشَّمْلِ

ومرَّ على غِيَابِ «أُمِّ يَعْفُورٍ» خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا.
وكانتْ صديقَتُها «أُمُّ خِدَاشٍ» دائِمَةً الحَنِينِ إِلَيْهَا، وَقَدْ اشْتَدَّ شَوْقُهَا إِلَى رُؤْيَيْهَا؛ وَزَادَ
هَمُّهَا وَوَحْشَتُهَا، لِانْقِطَاعِ أَخْبَارِهَا عَنْهَا. وَكَانَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ — كُلَّ
صَبَاحٍ — إِلَى مَسَافَةِ بَعِيدَةٍ وَهِيَ تَنَادِي بِصَوْتٍ مَحْزُونٍ تَكَادُ تَحْنُقُهُ الْعِبْرَاتُ: «إِلَيَّ، يَا «أُمُّ
يَعْفُورٍ»! إِلَيَّ أَتَيْتُهَا الْحَبِيبَةُ النَّائِيَةُ!»
فَلَا تَسْمَعُ — لِنِدَائِهَا — صَدَى، وَلَا يُلَبِّي دُعَاءَهَا أَحَدٌ؛ فَتَعُودُ إِلَى بَيْتِهَا، مَهْمُومَةً
الْقَلْبِ كَاسِفَةً الْبَالِ!

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ السَّادِسَ عَشَرَ، خَرَجَتْ «أُمُّ خِدَاشٍ» — عَلَى عَادَتِهَا فِي الصَّبَاحِ —
وَقَطَعَتْ فِي الطَّرِيقِ شَوْطًا بَعِيدًا، وَسَارَتْ فِيهِ — جَيِّئَةً وَذَهَابًا — مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى
سَلَةِ الصَّغَارِ يَائِسَةً. وَإِنَّهَا لَتَتَعَهَّدُهُمْ بِعِنَايَتِهَا إِذْ طَرَقَ مَسْمَعُهَا صَوْتُ يَنْبَعُثُ مِنْ مَسَافَةٍ
بَعِيدَةٍ، فَتَبَيَّنَتْ فِيهِ صَوْتُ صَدِيقَتِهَا «أُمِّ يَعْفُورٍ». فَسَرَتْ فِي جَسَدِهَا رَجْفَةُ الْفَرَحِ وَالذَّهْشَةِ،
وَأَنْدَفَعَتْ مُسْرِعَةً مِنَ السَّلَةِ، وَهِيَ تَصِيحُ مُرَحَّبَةً بِصَدِيقَتِهَا الْحَبِيبِ! وَتَبْعُهَا الْأَطْفَالُ —

جُهِدَ طاقَتِهِمْ — وظَلُّوا يَسْقُطُونَ وَيَنْزِلُقُونَ، مُنْعَثِرِينَ فِي سَيْرِهِمْ؛ وقد صاحتَ فِيهِمْ «أُمُّ خِدَاشَ»: «ضَاعُوا مِنْ عَزَائِمِكُمْ، وَقَوُوا مِنْ هِمَمِكُمْ، فَقَدْ دَانَيْنَاهَا.»
وما كادُوا يَبْلُغُونَ البابَ الخارجيَّ، حَتَّى رَأَوْا «أُمَّ يَعْفُورَ» أَمَامَهُمْ، فصاحتَ «أُمُّ خِدَاشَ» مُرَحَّبَةً بِصَاحِبَتِهَا، وَهِيَ تَقْفِزُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: «لَقَدْ طالتَ غَيْبَتُكَ، وَاسْتَوْحَشْنَا لِبُعْدِكَ، فَمَا أَسْعَدَنَا بِلِقَاكَ!»



وَعَجَزَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» عَنِ الكَلَامِ، مِنْ فَرَطِ السُّرُورِ، وَبَكَتْ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ، وَسَالَتْ عَلَى فَمِهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ. وَعَلَا نُبَاحُ أَطْفَالِهَا الصَّغَارِ. وقد التَّفُّوا حَوْلَ أُمِّهِمُ العَزِيزَةِ، وَالتَّمَعَتْ عُيُونُهُمْ سُرُورًا وَغِبْطَةً، وَتَحَرَّكَتْ أذُنَابُهُمُ الصَّغِيرَةُ بِهَجَّةٍ وَحُبُورًا، وَكَانَ «أَبُو الشَّرْقِ» يَمْرُجُ مَوَاءَهُ القَوِيَّ بِنُبَاحِ الكَلَابِ الصَّغَارِ الفَرَحَانَةِ!

(١٢) حِوَارُ الْأُسْرَةِ

وَرَأَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» أَطْفَالَهَا الصَّغَارَ قَدْ اِمْتَلَأَتْ جُسُومُهُمْ قُوَّةً وَنَشَاطًا؛ وَسَمِنَتْ أَجْسَادُهُمْ، فَلَمْ تَكَدْ تُصَدِّقُ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهَا، فَقَالَتْ مَذْهُوشَةً: «كَيْفَ تَجِدُكَ يَا «وَتَّابُ»؟ أَلَسْتُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ؟ فَخَبَّرَنِي: هَلْ كُنْتُ — فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِي — عَاقِلًا رَزِينًا هَادِئًا؟ وَأَنْتِ، يَا عَزِيزَتِي «أُمُّ وَازِعِ»، كَيْفَ قَضَيْتِ أَيَّامَكَ بَعِيدَةً عَنِّي؟ وَأَنْتِ يَا «وَاشِقُ»:

هَلْ فَكَّرْتِ فِي أُمِّكَ الَّتِي أَوْحَشَهَا بَعَادُكَ؟ إِنِّي أَرَاكَ ضَخْمَ الْجُنَّةِ، مَمْلُوءًا صِحَّةً وَقُوَّةً! وما دَخَلَتْ الْأُسْرَةُ الْبَيْتَ، حَتَّى أَقْبَلْتُ «سُلَافَةَ» مَرَحَبَةً بِعُودَةٍ «أُمُّ يَعْفُورَ». وَمَا رَأَتْهَا، حَتَّى حَمَلَتْهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا؛ وَلَكِنَّ «أُمُّ يَعْفُورَ» كَانَتْ مَمْلُوءَةً شَوْقًا إِلَى الْإِثْنَانِ بِأَوْلَادِهَا، فَلَحَسَتْ وَجَنَةً «سُلَافَةَ» شَاكِرَةً لَهَا عَطْفَهَا، وَحَدَبَهَا عَلَيْهَا. ثُمَّ انْفَلَتَتْ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْهَا، قَافِزَةً إِلَى الْأَرْضِ؛ وَسَارَتْ مَعَ صِغَارِهَا صَوْبَ السَّلَّةِ، ثُمَّ سَأَلَتْهُمْ مُتَعَجِّبَةً: «لَقَدْ كُنْتُ فِي قَلْبِي دَائِمٌ، وَهُمْ مُقِيمٌ، خَوْفًا عَلَيَّكُمْ. فَمَنِ الَّذِي تَعَاهَدُكُمْ بِالتَّغْذِيَةِ وَالْعِنَايَةِ؟»

فَقَالُوا لَهَا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ: «إِنَّمَا فَضُلُ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى أُمَّنَا «أُمُّ خِدَاشِ» الَّتِي كَانَتْ تُغْذِيُنَا بِلَبَنِهَا، وَتُدَلِّلُنَا، وَتَلْحَسُنَا بِلِسَانِهَا، وَتُحَدِّثُنَا عَنْكَ أَطِيبَ الْأَحَادِيثِ الْمُطْمَئِنِّهِ السَّارَّةِ، وَتُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّكَ عَائِدَةٌ مِنْ رِحْلَتِكَ، بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» لِصَاحِبَتَيْهَا «أُمُّ خِدَاشِ»: «هَذَا كَثِيرٌ، أَيَّتُهَا الْأُخْتُ الْحَنُونُ؛ فَقَدْ أُرْبِيتُ فِي الْفَضْلِ، وَتَجَاوَزْتُ فِي الْكَرَمِ، حَتَّى هُزِلَ جِسْمُكَ، وَسَمِنَتْ أَجْسَادُ أَوْلَادِكَ الشَّرِهِينِ! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقَرَّ عَيْنِي بِرُؤْيَيْكُمْ، وَقَدْ جَاءَ دَوْرِي لِأَعْنَى بِكِ الْآنَ!»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشِ»: «لَا حَاجَةَ بِكَ إِلَى الشُّكْرِ لِي عَلَى مَا فَعَلْتُهُ، فَإِنِّي لَمْ أَزِدْ عَلَى أَنْ فَعَلْتُ الْوَاجِبَ. فَدَعِينِي مِنْ هَذَا، وَخَبِّرِينِي: أَيُّ مَرَضٍ ذَلِكَ الَّذِي أَلَمَّ بِكَ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ»: «لَقَدْ كَانَ السَّيِّدُ وَاهِمًا فِي حُسْبَانِهِ، حِينَ ظَنَّ أَنَّي مُصَابَةٌ بِدَاءِ الْكَلْبِ، وَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْخَطَرِ، وَتَمَّ لِيَ الشِّفَاءُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ، وَأَصْبَحْنَا — كَمَا كُنَّا — بَعْدَ أَنْ كِدْنَا نَيَاسُ مِنْ اللَّقَاءِ. وَإِنِّي لِأَعُدُّ هَذَا الْيَوْمَ أَكْبَرَ أَغْيَادِي، فَقَدْ تَمَّتْ لِي فِيهِ أَمَانِي، وَتَحَقَّقَتْ أَحْلَامِي.»

فَقَالَتْ «أُمُّ خِدَاشِ» وَهِيَ مُبْتَهَجَةٌ: «وَإِنِّي لَأَرَاهُ — كَذَلِكَ — أَسْعَدَ أَيَّامِ حَيَاتِي!»

الصَّدِيقَتَانِ

فَهَتَفَ الْأَوْلَادُ الْأَرْبَعَةُ الصَّغَارُ، وَهُمْ يَتَدَحَّرُونَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ فَرَطِ السُّرُورِ،
وَيَقْفِرُونَ قَفَزَاتِ الْفَرَحِ وَالْإِبْتِهَاجِ، حَوْلَ الصَّدِيقَتَيْنِ، وَقَالُوا فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ: «وَإِنَّا لَنَرَى
أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ أَسْعَدُ أَيَّامِ حَيَاتِنَا جَمِيعًا»